الإمامان بن باديس ومحمد عبده موازنة

د. محمد بن سمينة

القسم الأول

غني عن البيان أن لكل من الناس، ميراثه الأسري وذاتيته وشخصيته الخاصة في جانبيها الفطري والمكتسب. ولهذا يحسن بالباحث للتعرف -حق المعرفة- على الآراء و الأعمال والمواقف، وما فيها من أصالة أو اقتباس، أن يعقد موازنة بين النظائر والأشباه، ولأجل هذا كانت الرغبة في الموازنة بين ابن باديس وبعض أعلام عصره من المفكرين والمصلحين.

ويمكن القول أن أعلام الإصلاح المسلمين يلتقون على امتداد العصور في المنطلقات و في الأهداف، في دروب الجهاد و في المقاصد المنشودة، مع ما يمكن أن يكون بينهم من وجوه الافتراق في غير ذلك من أساليب العمل وملامح التلوين الشخصي ومظاهر الأسلوب. و تنسحب هذه الحقيقة على ما كان من ذلك ما بين هؤلاء المصلحين في هذا العصر الحديث من أمثال (محمد بن عبد الوهاب : 1703 /1799) و(جمال الدين الأفغاني : 1839/1897) و(محمد عبده : 1849/1905) و(محمد رشيد رضا : 1866/1935) و(عبد الرحمان الكواكبي : 1854/1902) و(شكيب أرسلان : 1869/1946) و(عبد الحميد ابن باديس : 1889/1940) و(محمد البشير الإبراهيمي : 1889/1965) و(الطيب العقبي : 1890/1960)

و(إبراهيم اطفيش : 1965/1888) و(إبـــراهيم بيـــوض : 1981/1899) و(العربي التبسي : 1957/1895) و(أبي اليقظان : 1973/1888) و(مبارك الميلي : 1945/1898)، وغير هؤلاء في أكثر من بلد من بـــلاد العـــالم العربي الإسلامي، ممن سار على هذا النهج، و اختار هذا الطريق، فقد كان جميع هؤلاء ينهلون أفكارهم من معين واحد، و يخوضون غمـــار الجهاد في ميادين متشابهة، وينشدون غايات متماثلة.

ويود هذا البحث أن يعقد موازنة ما بين اثنين من هؤلاء الأعلام، وبخاصة بين من يتوقع أن تكون الصلة بينهما أكثر تلاحما وأشد وثوقا. و قد وقع الاختيار بناءا على ذلك أن تكون هذه الموازنة قائمة على نقاط التقاطع ما بين هذين الإمامين : ابن باديس ومحمد عبده.

ونبادر بالقول أن منهج هذه الموازنة لا يستهدف التوسع في بيان وجوه المماثلة و المفارقة بين هذين الإمامين، وإنما يقتصر على توضيح أهم ذلك في محاور ثلاثة هي :

أولا : في مجال النشأة والتكوين.

ثانيا : في حقل الإسهامات في الحياة العامة.

ثالثا : في ميدان الكتابة.

ونأتي إلى الحديث عن مقومات المحور الأول في هذه الموازنة، مبتدئين ذلك بما عند محمد عبده من ذلك، ثم نحاول أن نوازن بين ذلك وبين ما كان لدى ابن باديس من ذلك :

أولا : في مجال النشأة والتكوين

الإمام محمد عبده (1266 -1323 هـ/1849 -1905 م)

تتلمذ محمد عبده في صباه على الشيخ (درويش خضر) الذي كان من أتباع السنوسيين الذين كانوا يجمعون بين التصوف السني، وبين الدعوة إلى الإصلاح على نهج الوهابيين فكان لهذا الشيخ الصوفي أثره على شخصية محمد عبده[1] ثم اختلف إلى الأزهر فتخرج منه بشهادة العالمية سنة 1877، غير أن ما حصل عليه من علم ، إنما حصل عليه من بعد[2].

وفي هذه الأثناء اتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني الذي كان قد حل بمصر (1871) فكان لهذا الداعية الإسلامي الكبير ما كان له من أثر عظيم على مسيرة محمد عبده الإصلاحية و توجهاته المستقبلية، ثم قام الإمام عبده بالتدريس في الأزهر وبه لقي من بعض الجامدين لأفكاره التجددية الجريئة ما لقي ،كما درس بدار العلوم و بمدرسة الألسن ، ثم عين محررا لجريدة الوقائع المصرية (1880)[3].

ولما قامت الثورة العرابية 1881 لم يكن من المتحمسين لها في البداية، ولكن التطورات التي لابستها على إثر التدخل الأجنبي جعلته يقف إلى جانبها[4] وقد قدر لهذه الثورة أن تفشل فسجن محمد عبده ثم نفي إلى بيروت

---

1. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، تحقيق د. محمد عمارة، الجزء 3، ص 138، المؤسسة العربية، بيروت 1972.

2. انظر د. عبد اللطيف حمزة : "أدب المقالة الصحفية في مصر"، الجزء 2، ص 76، ط 3 دار الفكر العربي، القاهرة 1964.

3. انظر د. عمر الدسوقي : "في الأدب الحديث"، جزء 1، ص 362، ط 7 دار الكتاب العربي، بيروت 1966.

سنة 1882 وقد تلقى في هذه الأثناء دعوة من أستاذه الأفغاني الذي كان قد نفي من مصر 1878 للالتحاق به حيث يقيم بفرنسا فاستجاب لذلك، وبباريس أصدر هذان المصلحان جريدة "العروة الوثقى" التي كانت تنقل أفكارهما إلى بلاد العالم الإسلامي، إلا أنها لم تلبث أن توقفت بعد صدور 18 عددا منها، فرجع محمد عبده إلى بيروت ومكث بها يدرس و يؤلف، حتى عفي عنه فعاد إلى مصر سنة 1888 فعين قاضيا ثم مفتيا، وظل يشتغل بهذا المنصب إلى أن توفي رحمه الله سنة 1905.

وكان محمد عبده قد قضى حياته مجاهدا حاملا لواء الإصلاح الديني والاجتماعي، داعيا إلى النهضة والتقدم، وذلك عن طريق ما ينشره من أعمال، وما قام بإحيائه من تراث وما كان له من نظرات في تفسير القرآن الكريم بمنهج علمي حديث ركز فيه على التمكين لأفكاره الإصلاحية و تقديم صورة صحيحة عن الدين الإسلامي والمنافحة عنه[1] وقد اشتمل تفسيره هذا على سورتي البقرة وآل عمران وجزء من سورة النساء إلى الآية 126[2] وله تفسير جزء عم، وسورة الفاتحة وبعض الآيات المتفرقة[3].

وماذا بعد، عن سيرة ابن باديس من هذه الشذرات من سيرة الإمام عبده؟ وما هي أوجه الاتفاق والافتراق في ذلك ما بين الإمامين؟

يمكن القول أن ابن باديس يلتقي مع محمد عبده في بعض هذه الجوانب من سيرة الحياة، فقد مر في بداية تعلمه بما يقرب مما مر به

1. أنظر : "كتاب الأصالة" الجزء 2، ص 73 من منشورات وزارة الشؤون الدينية الجزائر.
2. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 5، ص 276.
3. أنظر م . ن، ص 281.

محمد عبده في هذه المرحلة، فقد تتلمذ على الشيخ "حمدان لونيسي" دفين المدينة المنورة (ت 1920) كما ربطته في هذه الفترة كمحمد عبده صلة ببعض المتصوفة واختلف من بعد، إلى جامع الزيتونة وهو مؤسسة تعليمية مشابهة للأزهر، وتخرج منه كمحمد عبده بشهادة العالمية ثم دخل إلى الحياة العملية، مثله من باب الإصلاح، فاشتغل بالتدريس والصحافة مربيا للجيل، ومرشدا للجماهير، ومفسرا للقرآن الكريم.

وإن جهود الإمامين في هذه الميادين متقاربة وغايتهما في ذلك متشابهة مع بعض الفروق في الجانب الشكلي، ذلك أن محمد عبده اقتصر في تفسير القرآن تدريسا على بعض السور كما رأينا. أما ابن باديس فقد فسر القرآن الكريم كله تدريسا، ونشر بعضا من ذلك في مجلته "الشهاب".

ومما يمكن أن يميز الإمامين أحدهما عن الأخر في هذه السيرة أن محمد عبده كان رجل بحث ونظر أكثر منه رجلا ميدانيا، بينما ابن باديس كان بالإضافة إلى مساهماته في مجال النظر رجلا عمليا ميدانيا، دائم المرابطة إلى جانب الأمة، دائب الحركة و الجهاد في معركتها، مشرفا على هيئة نظامية تهدف إلى نهضة شاملة[1] وكان ابن باديس يتحرك في كل هذه الميادين حرا طليقا غير مقيد بحبل الوظيف ،كما كان -كذلك- محمد عبده .

ومهما يكن.فإن المتأمل في هذه الخطوط العامة من سيرة هذين العلمين المصلحين يلمس أن وجوه التقارب بينهما أكثر من وجوه

---

1. انظر د. محمد فتحي عثمان : "عبد الحميد ابن باديس رائد الحركة الإصلاحية في الجزائر المعاصرة"، ص 74، دار القلم الكويت 1987.

الاختلاف، كما يتلامح ذلك في عوامل التكوين، و فيما ينعكس من ذلك على جهودهما في دروب الجهاد وميادين العمل المتعددة.

ثانيا : في حقل الإسهامات في الحياة العامة

1. في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي

يمكن القول أن الوضعية التي انحدر إلى دركاتها المسلمون في معظم وجوه حياتهم انحرافا في الاعتقاد، وجمودا في الفكر، وعزوفا عن العمل، وزهدا في الدنيا، إنما كان ذلك "بسبب ابتداعهم في دينهم وخطئهم في أصوله و جهلهم بأدنى أبوابه و فصوله"[1].

ويعود قدر كبير من هذا التردي في حياة المسلمين إلى ما كان يبثه في أوساطهم بعض أدعياء التصوف في المشرق وفي المغرب من بدع وأوهام[2].

وقد قيض الله للأمة في مطلع هذا العصر كوكبة من العلماء المصلحين هزت ضمائرهم هذه الحال فعكفوا على تشخيص عللها ومحاولة إيجاد العلاج لها فانتهوا من ذلك إلى عدة وصفات يعثر الباحث من بينها على هذا النص في آثار محمد عبده الذي يكاد يلخص الداء و الدواء معا ذلك أن صاحبه يرى أن علاج تلك الحال "إنما هو تصحيح الاعتقاد و إزالة ما طرأ عليه من خطأ في فهم نصوص الدين حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الأفراد واستنارت بصائرهم

---

1. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 3، ص 231، 193.

2. أنظر م . ن، ص 211، 227.

بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة و سرى الصلاح منهم إلى الأمة"[1].

وقد أوقف المصلحون على النهوض بهذه الرسالة جهوداً كبيرة تمركزت بخاصة على تصحيح العقيدة الإسلامية وتطهيرها مما علق بها من شوائب و أهواء، وقد لقي أولئك المصلحون في سبيل ذلك ما لقوا على أيدي المحتلين وعلى أيدي بعض صنائعهم من الجامدين، و قد بلغ ذلك ببعض هؤلاء إلى حد إقدامهم على اقتراف الجريمة لمحاولتهم التصفية الجسدية لبعض المصلحين.

كما تصدى هؤلاء المصلحون في الوقت ذاته إلى بعض المتعصبين الأجانب الذين حاولوا أن ينالوا إفكا وافتراء من الدين الإسلامي، فقاموا يدحضون شبههم و يكشفون عن زيف أباطيلهم ويرسمون بلسان الحقيقة صورة صحيحة عن الدين الإسلامي، وقد أبلى محمد عبده البلاء الحسن في هذا المجال، وكان من ذلك ما كتبه في الرد على افتراءات (هانوتو)[2] و(رينان)[3] وما نشره ابن باديس في هذا الباب ردا على (آشيل) بعضا من ذلك[4].

يمكن للدارس الذي يوازن بين جهود محمد عبده في هـذا المحـور، وبين ما يماثلها من آثار ابن باديس يدرك ما كان من وجوه التلاقـي

---

1. أنظر م . ن، ص 231.

2. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، ص 201، 240.

3. أنظر المصدر نفسه، ص 316، 347.

4. أنظر "آثار الإمام ابن باديس"، جزء 5، ص 42، 65.

والتشابه بين الإمامين في معظم القضايا المعالجة فكرا ومنـــهجا وأداء، تمكينا للعقيدة الإسلامية الصحيحة في أوساط المجتمع ومقاومة للمبتدعين في الدين ومقارعة للمتعصبين ضده وتوعية للأمة بما يوضـــح أمامهـــا المسار الصحيح في الفكر وفي طرق العمل.

ولا ينحصر هذا التقارب بين الإمامين في المنطلقات وفي المبادئ فحسب، وإنما ينسحب ذلك أيضا على طريقة التناول وأدوات التبليغ، فكان الحوار الرصين والخطاب المتزن والبرهان العقلي عوامل مشتركة تطبع المنهج و تميز الأسلوب لدى الإمامين.

2. في الحقل المعرفي

لقد أدرك المصلحون في العالم الإسلامي أن قدرا كبيرا من أدواء الأمة إنما مرده إلى انتشار شبح الجهل و انحسار ظل العلم في أوساطها، و إن الشفاء من ذلك إنما يكون -بالإضافة إلى أخذها بأصول دينها- بدعوتها إلى الإقبال على العلم و المعرفة و نزع ثوب الغفلة و الجهل .

وانطلق المصلحون يجاهدون على هذا الدرب آخذين بأيدي أمتهم إلى ينابيع المعرفة الحقة داعين إياها بدعوة القرآن الكريم إلى الإقبال على العلوم الدينية و العلوم الكونية في وقت واحد.

ويتجلى هذا المفهوم للعلم في آثار كثير من المصلحين، فتجد ذلك في آثار "محمد عبده"[1] وفي آثار "ابن باديس" وعند غيرهما من المصـــلحين[2]

---

1. أنظر : "الأعمال الكاملة"، الجزء 3، ص 139، 231.

2. أنظر شكيب أرسلان : "لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم؟"، ص 131، موفم للنشر الجزائر 1990.

ومن ثم كان حرص هؤلاء المصلحين على الربط بين الدين والعلم وبيان وجوه تآخيهما على منهج القرآن من جهة و التأكيد من جهة ثانيـــة، على حسن الإفادة من عطاءات المدنية الغربية الحديثة ذلك "أن الإســـلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبدا، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضـــارها وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها أهله"[1] ولهذا كانت الدعوة إلى طلب العلم تشمل العلم الديني والدنيوي معا، وتحث على تحصيله من كل مكان، وتلقيه بأي لسان[2] مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم "اطلبوا العلم و لو بالصين"[3] رواه البيهقي. ولو كان العلم المقصود طلبه في الحديث دينيا فقط، ما كانت الدعوة تكون إلى ذلك في بـــلاد الصين وهي وثنية.

وقد بسط المصلحون في هذا الإطار الحديث في واجب العلماء بتعريف المسلمين حقيقة دينهم وتوعيتهم بشؤون دنياهم والأخذ بأيديهم على طريق التحرر والرقي[4] كما حاولوا أن يصوروا من نحو آخر ما انحدر إليه بعض المحسوبين على العلم من دركات الجمود و التقليد إلى الحد الذي جعلهم يعارضون إدخال بعض العلوم الحديثة كالجغرافيا إلى الأزهر، ووقوفهم في وجه الداعي إلى ذلك "محمد عبده"[5] وقد رأى

---

1. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، جزء 3، ص 334.

2. أنظر م . ن، ص 297.

3. أنظر إسماعيل بن محمد الجراحي : "كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس"، جزء 1، ص 154، ط 4، بيروت 1985.

4. أنظر محمد عبده : "العروة الوثقى"، ص 160، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت 1980.

5. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة "، جزء 3، ص 313.

المصلحون أمام هذا الحال الذي جمدت عليه فهوم بعض المنتسبين إلى العلم أن دورهم في خدمة المعرفة ينبغي ألا يقتصر على الجهود الداعية إلى الإقبال على العلم الصحيح وحسب، و إنما يجب أن تذهب هذه الجهود إلى أبعد من ذلك فتعالج المشكلة من جذورها وذلك بالقيام بعملية إصلاح أسس المنظومة التعليمية وكان لمحمد عبده وبن باديس مساهمات ملموسة في هذا المضمار، فقد حرر محمد عبده في هذا الشأن جملة من مشاريع الإصلاح في ميدان التربية لا تخص مصر وحدها، وإنما شملت غيرها من بلاد الإسلام : تركيا[1] والشام[2] وقد خص محمد عبده الأزهر بعناية مميزة في هذا الميدان فدعا إلى إجراء عملية لإصلاح شاملة لما يحكم سير العمل به من قواعد، و لما يضبط برامجه التربوية من مناهج، تحريرا لهذه وتلك بما يكبلهما من جمود وتقليد[3]. وقد ظلت عملية إصلاح التعليم هذه هاجسه الذي لا يكل من تكرار الحديث عنه وقد حدث أن ارتحل إلى بلاد المغرب في مطلع هذا القرن، فكان الإصلاح المنشود موضوع دروسه في جمهور علماء تونس، مما يمكن أن يعتبر ذلك دعوة غير مباشرة للمساهمة في إصلاح برامج التعليم بجامع الزيتونة الذي يعتبر في تونس بنظمه ومناهجه نظيرا للأزهر بمصر[4].

ويمكن القول أن أبرز عنصر ركز عليه محمد عبده في عملية إصلاح التعليم أكثر من غيره هو حديثه عن افتقار برامج التعليم بالمدارس

---

1. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، جزء 3، ص 71.
2. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، جزء 3، ص 95.
3. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، جزء 3، ص 177.
4. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، جزء 3، ص 138.

الرسمية بمصر وتركيا يومئذ إلى التربية الخلقية والعلوم الدينية، وقد اعتبر ذلك من أبرز أسباب انحطاط المسلمين[1].

ومما يلحظ في هذا المضمار أن (محمد عبده) وهو ينص على هذه الظاهرة السلبية في برامج التعليم يومئذ لم يفته أن يلفت النظر أكثر من مرة إلى ظاهرة أخرى مشابهة لها، أو أكثر منها خطورة تلكم هي ظاهرة انتشار التعليم الأجنبي في البلاد الإسلامية وما ينجم عن ذلك من مخاطر على ناشئة الأمة : عقيدة وخلقا وانتماء[2].

ومما ينبغي الإلماع إليه في هذا الإطار أن جهود محمد عبده التربوية كانت تستهدف النهوض بالبنين و البنات في آن واحد، فقد حث في هذا الصدد على وجوب العناية بتعلم البنات موضحا أن الخطاب الديني يسوي بين المرأة و الرجل في هذا المجال ، بما يستوجب النهوض بهما معا في ميدان العلم[3] مؤكدا في الوقت ذاته أن "ترك البنات يفترسهن الجهل و تستهويهن الغواية من الجرم العظيم"[4].

ونخلص من هذا إلى القول أن التربية تعد الركيزة الأساسية التي بنى عليها محمد عبده مشروعه الإصلاحي، ولذلك تنوعت إسهاماته في ميدانها، فكانت عملية بنهوضه بالتدريس في أكثر من مؤسسة، وكانت نظرية بتحبيره العرائض في إصلاح التعليم، ودعوته إلى العناية بأصول التربية العامة القائمة على مبادئ الدين والفضائل[5]، كما كانت له إلى

---

1. أنظر م . ن، ص 73.
2. أنظر م . ن، ص (55 – 112).
3. أنظر م . ن، ص 227.
4. أنظر م . ن، ص 158.
5. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، ص 156.

جانب ذلك بعض العناية بشؤون التربية الخاصة فيما يتصل بمحتوى البرامج الدراسية و الطرق المتبعة في أدائها وذلك بالتأكيد على انتهاج أسلوب التدرج في ذلك، ومراعاة تنوع استعدادات المتعلمين واختلاف قدراتهم في الاستيعاب وما إلى ذلك[1] ولعل هذه العناية الملحوظة بشؤون التربية عند محمد عبده وغيره من المصلحين تبرز أهميتها فيما كان ينشده هؤلاء من تجديد في أسس البنية النفسية والفكرية والسلوكية للأمة.

و يمكن القول أن الإمام ابن باديس يلتقي مع محمد عبده في معظم ما دار فيه الحديث في هذه القضايا :

1. دعوته الأمة إلى الإقبال على المعرفة ذكورا وإناثا.
2. الإسهام ببعض الأفكار في عملية إصلاح التعليم.
3. التأكيد على أهمية العلوم الدينية في البرامج التربوية.
4. الحديث عن مخاطر التعليم الأجنبي.
5. بعض النظرات في التربية الخاصة.

وإن كان هناك شيء من الافتراق ما بين هذين الإمامين في هذا الميدان فذاك ما يمكن الإشارة إليه فيما تميز به ابن باديس عن محمد عبده في هذا الباب، بعكوفه طوال حياته على مشروعه التربوي الإصلاحي داعية مرشدا للعامة، ومعلما مربيا للخاصة، مما أتاح له أن يخرج جيلا من التلامذة حملوا رايته وساروا على نهجه، وتجلى بعض ذلك في مئات المدارس التي نبتت من بذور غرسه في حقول كثيرة من

---

1. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، ص 138.

تربة الوطن، وقد أتت أكلها في المحافظة على شخصية الأمة وتحصين الإنسان الجزائري من مخاطر التغريب وإعداده إعدادا نفسيا وفكريا، بما أهله إلى إعلان الجهاد ومحاربة المعتدين وتحقيق النصر.

3. في المجال السياسي

يمكن القول أن معظم جهود الإمام محمد عبده تكاد تقتصر على الإصلاح الديني والتربوي لا تتجاوزهما إلى غيرهما، لكن هذا لا ينفي أن يكون الإمام قد اشتغل في بعض الفترات من حياته بشيء من السياسة، فقد رأينا أنه مارس شيئا من ذلك بوقوفه إلى جانب الثورة العرابية ومشاركته أستاذه الأفغاني ببعض جهوده في هذا الميدان، إلا أنه خلص من بعد، في أعقاب انفصاله عن الأفغاني ورجوعه من منفاه إلى بلده مصر، إلى العدول عن هذه المزاوجة والاقتصار في نشاطه أو يكاد على الإصلاح الديني والاجتماعي فحسب، واعتزاله العمل السياسي نهائيا لاعتقاده أن السياسة "ما دخلت عملا إلا أفسدته"[1].

وكان أثناء زيارته للجزائر سنة 1903 قد نصح أهلها بتركهم الاشتغال بالسياسة وحثهم على مسالمتهم الحكومة[2] وقد يكون بادر بذلك ليفند تلك الوشاية التي سبقته إلى الجزائر ويزعم أصحابها أنه قادم إليها ليحرض أهلها على فرنسا[3] ومهما يكن من ذلك فإنه كان

---

1. أنظر محمد رشيد رضا : "تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده"، الجزء 1، ص 872، مطبعة المنار القاهرة 1931.

2. أنظر : "آثار الإمام ابن باديس"، الجزء 5، ص 121.

3. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 3، ص 88.

سيء الظن بالسياسة إلى حد بعيد ،كما تدل على ذلك مقولته هذه "أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس"[1].

وكان في آخر حياته قد هادن الإنجليز أملا في أن يساعده ذلك في التمكين لمشروعه الإصلاحي[2].

كما وقف من الخلافة العثمانية موقف المساند المؤيد، ويرى بهذا الصدد أن المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان بالله ورسوله ويؤكد ذلك بقوله "وإنا و الحمد لله على هذه العقيدة عليها نحيا و عليها نموت"[3] وهو لا ينفرد بهذا الموقف المساند للخلافة من بين المصلحين، وإنما يشاركه في ذلك كثير من هؤلاء لعل من أبرزهم محمد رشيد رضا، محب الدين الخطيب وذلك خوفا منهم عليها من أعدائها[4].

وماذا عن موقف بن باديس من قضايا هذا المحور؟

يمكن القول أن بن باديس قد تميز عن محمد عبده في النشاط السياسي، ولا يكاد يلتقي معه في هذا الميدان إلا لماما، وتبدو تلك الفروق في هذه الجوانب :

---

1. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 3، ص 316.

2. أنظر محمد صالح المراكشي : "تفكير محمد رشيد رضا"، ص 201، الدار التونسية للنشر، تونس (م وك)، الجزائر 1985.

3. محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 3، ص 72، 91.

4. أنظر محمد صالح المراكشي : "تفكير محمد رشيد رضا"، ص 110.

1. نفور محمد عبده من العمل السياسي واقتصاره أو يكاد في مشروعه الإصلاحي على الجانب الديني و التهذيبي، بينما كان ابن باديس قد زاوج في مشروعه بين هذه النشاطات في وقت واحد وإذا كان الدارس يصادف أن بن باديس قد أعلن أكثر من مرة في بداية عهده أنه لا يرغب في العمل السياسي وأن السياسة ليست من وسائل حركته فإن الذي يتأمل فيما كان يقوم به في هذه الفترة من أعمال ومواقف، يتبين أن ذلك إنما هو جزء أصيل من العمل السياسي[1]، كما يبدو ذلك في وقت مبكر في تعليقاته على خطب الحكام تذكيرا بالحقوق و منافحة عن الهوية ، و لكنه كان يمارس ذلك بمنهج مرن معتدل ، ليس فيه شيء من الصخب ، و ليس فيه شيء من الضجيج ، وكان ذلك منه خطة حكيمة ذكية أملاها عليه وعيه بملابسات المرحلة التاريخية الصعبة التي كان يعيش الشعب الجزائري يومئذ تحت وطأة إجراءاتها القاسية، مما كان يقتضي من كل عاقل أن يكون في مثل هذه الظروف، حكيما يتحرك بحساب في كل خطوة يخطوها في هذا الطريق ، محافظة على حركته وتمكينا لمقاصدها في حياة الأمة، وتفويتا على المتربصين بها فرص الانتقام منها.

2. رأينا فيما تقدم أن محمد عبده كان مؤيدا للخلافة العثمانية، وقد مر معنا أن ابن باديس كان يقف من هذه القضية موقفا مخالفا بلغ به إلى حد الوقوف إلى جانب الاتحاديين الذين أطاحوا بهذه الخلافة[2].

---

1. أنظر د. علي علواش : "حركة ابن باديس التربوية وأهدافها الإصلاحية"، ص 83 (رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، مخطوطة).

2. أنظر : "آثار الإمام ابن باديس"، الجزء 5، ص 20 وما بعدها.

3. سبقت الإشارة إلى أن الإمام محمد عبده مال في آخر حياته إلى شيء من مهادنة الإنجليز بينما لم يسجل التاريخ أن بن باديس قد فكر في يوم من الأيام أن يسير في هذا الطريق مهادنة للمستدمرين الفرنسيين، وإن كان قد أظهر في بداية حياته -حفاظا على مشروعه- قدرا ملحوظا من المرونة والاعتدال في التعامل مع بعض السلطات الحكومية، فإنه لم يلبث أن انتهى في ذلك إلى المجاهرة بآرائه السياسية ورفعه راية التحدي والمواجهة الجريئة للمحتلين كما يبدو ذلك في مواقفه منذ انعقاد المؤتمر الإسلامي، وقد حدث أن صرح عام 1937 في محاضرة ألقاها بتونس عن ضرورة الجمع بين العلم و السياسة. مؤكدا أن هذا الجمع إذا كان متعذرا من قبل مراعاة للظروف العامة فقد أصبح ذلك في هذه الفترة مطلوبا وممكنا، و مما يمكن أن يخلص إليه البحث في هذه المقاربة أن محمد عبده كان قد بدأ حياته بالإصلاح وانتهى بالإصلاح، بينما كان ابن باديس قد بدأ حياته بالإصلاح وانتهى بالإعداد إلى الثورة.

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المضمار أن محمد عبده قد سار في اتجاه المهادنة إلى درجة أنه أصدر فتوى بجواز الاستعانة بالمحتلين بما يفيد المسلمين[1] في حين أن ابن باديس كان قد أفتى ببراءة الأمة من المتجنسين من أبنائها الذين يولون المحتلين ويكثرون سوادهم[2] وأحسب أن المسافة بين الإمامين في هذا الميدان شاسعة.

---

1. أنظر محمد عبده : "الأعمال الكاملة"، الجزء 1، ص 710.

2. أنظر : "آثار الإمام ابن باديس"، الجزء 3، ص 308.